

غازي الصوراني: الحديث عن مشروع ثقافي تنويري فلسطيني نوع من الوهم

حاوره: رامي مراد

ولد عام ١٩٤٦م في مدينة غزة حي الشجاعة، لأسرة فلسطينية فقيرة، ما اضطره للعمل في الاجازات السنوية منذ المرحلة الإعدادية. أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٦٢، وقبل في كلية الحقوق في جامعة الإسكندرية، إلا أنه وبسبب الفقر الشديد لم يستطع الالتحاق بالجامعة. عمل كموظف حكومي منذ عام ١٩٦٣. وفي هذه الفترة قام بتأسيس حلقات سياسية عفوية مع بعض الأصدقاء، وبعدها التحق بصقوف حركة القوميين العرب عام ١٩٦٥. وبعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ التحق في إطار المقاومة الشعبية ضمن حركة القوميين العرب ثم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وعلى اثر الضربة والاعتقالات والمطاردة عام ١٩٦٨ طلب منه مغادرة القطاع إلى عمان، ثم القاهرة، ثم لبنان وسوريا و عمان مرة أخرى حيث منع من مغادرتها منذ عام ١٩٧٢ ولمدة عشرين عاما تقريبا. لم يتمكن من مغادرة عمان طيلة تلك الفترة إلا في عام ١٩٩١م حين دعي للمشاركة في المجلس الوطني الفلسطيني بالجزائر، في تلك الفترة تعرض لأشكال متنوعة من المعاناة خاصة في الفترة بين ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٦ حيث اضطر لان يشتغل عاملا في احد المزارع ثم في إحدى الكسارات في الكرك ثم عامل باطون، ثم عمل في أكثر من شركة للمقاولات حتى عام ١٩٩٤م حيث عاد إلى غزة. يقول عن نفسه "عرفت بالممارسة كيف يأكل الفقراء الخبز مغمسا بالتراب". طوال هذه الفترة ٧٢- ١٩٩٤ لم ينقطع أبدا عن ممارسة النشاط السياسي في الإطار التنظيمي الفلسطيني الذي انتمى له منذ عام ١٩٦٥ وشارك في الحركة الوطنية الأردنية؟ الفلسطينية، وفي تأسيس منتدى الفكر الديمقراطي الأردني، وقام بتأسيس لجنة أبناء قطاع غزة في الأردن للدفاع عن قضاياهم وامتد نشاط هذه اللجنة في كل المخيمات. حاليا يشغل منصب عضو في مجلس إدارة جمعية الهلال الأحمر التي يرأسها د. حيدر عبد الشافي في قطاع غزة، وعضو في مجلس أمناء جامعة الأقصى، ومجلس أمناء مركز الغد للدراسات الذي يرأسه د. جورج حبش، وعضو في مجلس أمناء مدرسة عرفات للموهوبين".

"عرفت بالممارسة كيف يأكل الفقراء الخبز مغمسا بالتراب"

قام طيلة هذه السنوات بكتابة ونشر العديد من المقالات والدراسات الثقافية والاجتماعية والسياسية، منها: "قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٩٣"، و"الفلسفة وتطور الفكر البشري"، و"الاقتصاد الفلسطيني تحليل ورؤية نقدية"، وكتاب حول "مفهوم المجتمع المدني وأزمة المجتمع العربي".

* هل هناك تعريف محدد للثقافة؟ وكيف تقرأ خارطة

الثقافة العربية- الفلسطينية؟

غازي الصوراني: الحديث عن مفهوم محدد للثقافة، أمر يفترق للسهولة، خاصة في عصرنا هذا الذي تنهوى فيه كثير من النظم والأفكار والقواعد المعرفية، فهي ليست موضوعا علميا واحدا، بل هي مجموعة من العلوم الاجتماعية والتاريخية والفلسفية تتشابه معا في نسيج كلي مع ما توصلت إليه ثورة المعلومات والاتصالات والإنترنت والتكنولوجيا والعلوم المتقدمة. ومع هذا يمكن القول أن الثقافة هي مجموعة الأنماط السلوكية والفكرية والشعورية التي تؤطر أعمال الإنسان في علاقاته الثلاثية مع الطبيعة والمجتمع وما وراء الطبيعة".

فكرنا العربي ينضب في معظم مجالات الثقافة

وفي اجتهادي لقراءة خارطة الثقافة العربية، فهي تشير إلى أن فكرنا العربي ينضب في معظم مجالات الثقافة: فكر اللغة، وفكر الإعلام، وفكر التربية، وفكر الإبداع، وهو نضوب يؤثر بوضوح على حالة القطيعة المعرفية النوعية التي سادت مجتمعاتنا العربية منذ القرن الرابع عشر إلى الآن، الأمر الذي يدل على فشل مجتمعاتنا في أن تصنع فلاسفة كبار، رغم ادراكي للمبادرات الفردية الجسورة للعديد من المفكرين العلمانيين العرب: كامين

العالم وسمير أمين ونصر أبو زيد، لكنها مبادرات غير كافية رغم دورها التنويري الذي يؤسس لثقافتنا ونهضتنا، والسبب يكمن في طبيعة التطور الاقتصادي الاجتماعي العربي المشوه الذي أدى إلى سيطرة التحالف الكومبرادوري البيروقراطي على أنظمة الحكم في بلادنا.. الأمر الذي عزز التبعية والاحتواء والارتهاق للنظام الرأسمالي الأمريكي الصهيوني من ناحية ودفع الى هذا التراجع المريع في كافة الجوانب الثقافية.. في المسرح والسينما كما في الشعر والقراءة

ومناهج التعليم، وقبل كل شيء في امتلاك مقومات العلم والتكنولوجيا وهو تراجع هائل على صعيد الثقافة الوطنية والقومية لحساب ثقافة الهبوط على أرضية الليبرالية الجديدة وآلياتها البشعة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وعليه فإن بداية النهوض الثقافي تكمن في قلب هذا المجتمع العربي عبر رؤية وأدوات سياسية اقتصادية اجتماعية نقیضة للعولمة الليبرالية.

السيد غازي الصوراني



تصوير رامي مراد

لانتخاب هيئاتها ومجالس إدارتها بصورة ديمقراطية منذ تأسيسها الى اليوم، رغم تداولها الكمي الواسع لموضوع الديمقراطية والتعددية السياسية في كافة المحافل ووسائل الإعلام

!؟ أمام هذا الواقع المعقد والمشوه، وفي مجابهته، ندرك أهمية الحديث عن المجتمع المدني وضروراته، ولكن بعيدا عن المحددات والعوامل الخارجية والداخلية، المستندة إلى حرية السوق والليبرالية، لأننا نرى أن صيغة مفهوم المجتمع المدني وفق النمط الليبرالي، فرضية لا يمكن أن تحقق مصالح جماهيرنا الشعبية، لأنها تتعاطى وتنسجم مع التركيبة الاجتماعية-الاقتصادية التابعة والمشوهة من جهة، وتتعاوى مع المفهوم المجرى للمجتمع المدني في الإطار السياسي الاجتماعي الضيق للنخبة و مصالحها المشتركة في إطار الحكم أو خارجه.

صيغة مفهوم المجتمع المدني وفق النمط الليبرالي، فرضية لا يمكن أن تحقق مصالح جماهيرنا الشعبية

الذاكرة الجماعية الفلسطينية هي ذاكرة وطنية وقومية في آن

*كيف تتعاوى مع الذاكرة الجماعية الفلسطينية وما هو دورها وتأثيرها على الواقع الثقافي؟

غازي الصوراني: الذاكرة الجماعية هي العقل الشعبي أو الفكر أو الرأي العام العفوي الصادق المرتبط بالواقع والمعبر عنه، ويقدّر امتداد الذاكرة الجماعية في التاريخ إلا أن دورها الراهن هو دور محرك للحاضر والمستقبل معا، فالذاكرة الشعبية الجماعية هي بداية الإنتماء، وهي بهذه الصفة احد مكونات الهوية الوطنية. الذاكرة الجماعية الفلسطينية هي ذاكرة وطنية وقومية في آن لذلك قد تمتلك بهذا القدر أو ذاك بعدا سياسيا وأيديولوجيا وطنيا أو قوميا له طابعه العفوي.

البعد السياسي في الذاكرة الفلسطينية شكل وعاء رئيساً لحركات النضال الوطني عبر تضحيات الجماهير الفقيرة المضطهدة خصوصا... وهي تضحيات ملهمة للحركات الوطنية، إضافة الى البعد السياسي.. فالذاكرة الجماعية الفلسطينية هي ايضا وعاء رئيساً للحراك والصراع الطبقي قبل عام ٤٨ والتجربة المريرة لأبناء شعبنا من الفلاحين الفقراء مع الممارسات الفوقية والاستعلائية الظالمة والكريهة مع طبقة كبار الملاك أو ما كان يسمى بالأفندية من أشباه الاقطاعيين خير دليل على ذلك الصراع الطبقي الذي اتخذ في تلك المرحلة بعدا عفويا رغم كل مرارته، ثم استمرار هذه الالام والمعاناة لجماهير شعبنا في الضفة والقطاع والشنتات عبر تداخل البعد الوطني مع البعد الطبقي حتى عام ٦٧ وبعده وصولا الى اليوم في تجربة أجهزة السلطة الفلسطينية وتحالفاتها عبر مظاهر الخلل والفساد والهبوط.

الذاكرة الفلسطينية الشعبية إذا هي حافظة للوعي الوطني والقومي لكل المحطات التاريخية والراهنة الناجمة عن التآمر الاستعماري الصهيوني والرجعي العربي، والإمبريالي الأمريكي، منذ سايكس بيكو ووعده بلفور ومشاريع التقسيم والنكبة ومؤامرة توطين اللاجئين في سنياء عام ١٩٥٥ الى هزيمة حزيران في ٦٧، والكفاح المسلح والثورة الفلسطينية المعاصرة... والانتفاضة... هذه الذاكرة مرتبطة أيضا بالمكان ورموزه... من مفتاح البيت... والبيت والقرية... والمدينة والمزرعة والورشة.. هذا المكان بكل تفريعاته ورموزه ما زال ماثلا حتى اللحظة في الذاكرة الجماعية لشعبنا.

المسألة الثانية في هذا السياق ترتبط بالذاكرة الفلسطينية في الشنتات عبر معاناة شعبنا واضطهادهم وإفقارهم وإذلالهم في هذا البلد أو ذاك، الأمر الذي أفرز بالضرورة ما يمكن تسميته بذاكرة التشرد والغربة...إنها ذاكرة معنية

بعوامل التمرد والمقاومة والرفض والتمسك بالحقوق والثوابت. وبالتالي نحن الفلسطينيون أمام ذاكرتين منصهرتين معا... ذاكرة الوطن وذاكرة الغربة والشنتات واللجوء... لكل منها آلامها العديدة... وآمالها الكبيرة التي لم تحقق بعد. المسألة الثالثة: إن الذاكرة الشعبية الفلسطينية هي جزء من الذاكرة الشعبية للأمم العربية كلها باعتبار أن فلسطين جزءا تاريخيا وراهنيا ومستقبلا في هذه الذاكرة العربية. بالطبع نحن الآن نعيش أحوالا سياسية واجتماعية واقتصادية متردية محكومة بالأزمات في كل أقطارنا العربية عبر أنظمة فقدت أو كادت تفقد وعيها الوطني، وعبر محاولات يائسة لإنتاج النزعات الطائفية، أو الحضارات القديمة في هذا القطر أو ذاك... الى جانب التفكك في هويات أو نزعات مجتمعية لا جذور لها، كما يجري في بلدان الخليج العربي وغيره. لكن الأصل سيبقى راسخا، وأعني به الذاكرة الجماعية الشعبية في فلسطين وكافة الأقطار العربية، رغم كل مظاهر التراجع التي تملينا علينا العولمة الأمريكية أو الأنظمة العربية، ورغم كل مظاهر التخلف والانحطاط السياسي والاجتماعي السائد، ورغم كل محاولات تفكيك بلدان هذا الوطن، ستبقى الذاكرة الشعبية الفلسطينية جزءا من الذاكرة القومية العربية ارتباطا بالماضي والحاضر والمستقبل، ولا أبالغ لو قلت أن غياب هذه الذاكرة سيكون مؤشرا خطيرا على غياب الهوية الوطنية.

*هل هناك أمل لمشروع ثقافي تنويري في فلسطين؟

غازي الصوراني: رغم أنني لا أستطيع إغفال المسار الهابط لتطور مجتمعنا الفلسطيني خلال العشر سنوات الأخيرة، عبر العديد من الممارسات السلبية وتراكماتها، إلا أن هذه الظاهرة على خطورتها لا تشكل أو تهين كليا على صورة الواقع الفلسطيني وحركته، بمعنى أننا نتفق على أن هناك وجها آخر لهذه الثنائية، هو الوجه الإيجابي بأدواته وشخصه في الثقافة والفكر والسياسة والاقتصاد.

المسألة الثانية في هذا الجانب أن الحديث عن مشروع ثقافي تنويري فلسطيني هو نوع من الوهم، ذلك أن أي حركة تنويرية فلسطينية بالمعنى الجزئي لا يمكن أن تتفتح أو تتطرق دون ارتباطها العضوي راهنا ومستقبلا بالمشروع الثقافي التنويري العربي.

المسألة الثالثة وهي الأهم، تتجلى في أن مجتمعاتنا في فلسطين والبلدان العربية الأخرى لم تتمكن حتى اللحظة- لأسباب متنوعة- من تهئية أو مراعاة كافة العناصر الرئيسية المطلوبة للمرحلة الانتقالية أو البدايات التاريخية المجتمعية الأولى لعملية التنوير والنهوض كما جرى في أوروبا في القرن الثامن عشر.

الحديث عن مشروع ثقافي تنويري فلسطيني هو نوع من الوهم

ولكن بالنظر الى هذه الأزمات المستفحلة سواء على صعيد الصراع الوطني/ القومي مع العدو الإسرائيلي والإمبريالي من جهة أو على صعيد الأزمات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية الداخلية من جهة أخرى، لا بد لنا من الإقرار بإمكانية قيام المثقف الفلسطيني والعربي، بدوره في بلورة ثقافة التنوير وانتشارها في مجتمعاتنا، تلك هي مهمة المثقف الملتزم في ممارسة النقد الجذري للواقع الراهن، وصولا الى الرؤية العقلانية التنويرية التي نسعى الى صياغتها عبر الجمع الخلاق بين سفح الليبرالية التنويرية الذي يمثل العقلانية، تكتيا فكري يعطي للعقل الأولوية في تفسير الظواهر وتحصيل المعرفة، الى جانب العلم والروابط المدنية والديمقراطية والحرية والمواطنة، وتكامل كل هذه المفاهيم مع السفح الثاني للنهوض الاقتصادي الاجتماعي الثقافي بأفاقه الاشتراكية، إذ أنه ليس لنا في هذا العصر أي خيار أو مستقبل آخر.

رؤية العقلانية التنويرية التي نسعى الى صياغتها تجمع بين سفح الليبرالية التنويرية الذي يمثل العقلانية والسفح الثاني للنهوض الاقتصادي الاجتماعي الثقافي بأفاقه الاشتراكية

مظاهر العافية في ثقافتنا العربية في فلسطين موجودة ولكنها محتبئة

إن تشخيصي لبعض جوانب الثقافة في بلادنا، لا يعني أنني أسعى الى مراعاة المزيد من نزعات التشاؤم، على العكس من ذلك أو بالتجاور معه، أرى أن مظاهر العافية في ثقافتنا العربية في فلسطين موجودة ولكنها محتبئة، هناك الشعر والرواية والقصة القصيرة والنثر والفنون المختلفة من الرسم إلى الموسيقى. لكن -لأسف- ليس هناك اهتمام جدي من السلطة أو من الأحزاب والجمعيات بهذا الإنتاج، لذا فإن مظاهر العافية مغيبة، إضافة إلى إنها محتبئة وهي مكرهه على ذلك بحكم تواضع أو ضالة إمكانات المبدعين فيها، ويبدو أن ثقافة الهبوط أو ثقافة الأمر الواقع أو الهزيمة هي السائدة والمهيمنة بحكم هيمنة الشرائح أو الطبقة السائدة في الحكم وتحالفاتها.